ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٦م

مناسبة ميلاد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام مناسبةٌ مُعتبَرةٌ، لأن القرآن الكريم أفرد لها ذِكْرًا متكررًا في سور متعددة، وميلادُه كان آية من آيات الله العظيمة التي تدلّ على عظمة الله تبارك وتعالى ووحدانيته وانفراده تبارك وتعالى بالربوبية.

والوجوه التي تُقرأ في هذه المناسبة كثيرة، لكنني اخترت في هذا اليوم المبارك أن أقرأ وجهًا من وجوه المناسبة، وهو الاستقراء للبيئة التي أنبت الله فيها هذه النبتة المباركة، الأسرة التي نبت فيها عيسى عليه الصلاة والسلام، ولم تكن على غرار كلِّ الأُسَر، فقد خلقه الله تبارك وتعالى من أُمّ ولم يكن في الأسرة أبٌ له، لكن الله سبحانه وتعالى اعتبر تلك الأسرة من خلال جذورها، ومن خلال ما تحمله من مضمونات، بل إنه تبارك وتعالى سمّى سورةً في القرآن باسم أمّ عيسى عليه الصلاة والسلام، وسمّى سورةً أخرى باسم أُسرتها، وهي سورة آل عمران التي سلّطت الضوء على جذور تلك الأسرة، وعلى هويتها المعنوية.

واقرؤوا في هذه السورة قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} [آل عمران: ٣٣-٣٥].

وهكذا فإن القرآن الكريم كرَّر ذِكْر عمران مرتين: مرةً وهو ينسب إليه الآل، ومرةً وهو يتحدث عن امرأته التي كانت جدّة عيسى عليه الصلاة والسلام.

ولا حاجة للتكلّف حين ننسب آل عمران إلى عمران والد موسى، ثم نجعل عمران الثاني جدّ عيسى، فإنه تكلّف ما عهدناه في السياقات القرآنية.

يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآل عمران عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} وها هنا شاهد المناسبة، {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، وقد قال أهل التفسير:

اصطفى آل عمران {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} فكان الاصطفاء والاجتباء مقرونًا بالسبب المعنوي.

اصطفى آل عمران {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} فكان هذا المضمون المعنويّ الذي حملته جدّة عيسى عليه الصلاة والسلام مضمونًا يُرسل رسالة إلى البشرية، ويُعطي تعبيرًا نحتاج إليه عن هوية الأم التي عنها تتولّد الأجيال.

حين تكون رسالة الأمّ أن تكون ذريتَها مُحررَّة من الرِّق، وأن تكون ذريتها في العبودية لله سبحانه وتعالى وحده، وألا يكون في ذريتها عبدٌ للأشياء، وأن لا يكون في ذريتها عبدٌ للأغيار...

إنه تعبير عجيب، عندما تقول امرأة عمران: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا} محرَّرًا: من الحرية، كما يذكر علماء التفسير، إنها تريده حُرًّا.

واليوم كم من أسرةٍ تُخطط من أجل أن تكون ذريتَها في رِقِّ الأشياء!

أين هي الأم التي تُخطط من أجل حرية ولدها، ومن أجل حرية ذريتها عما سوى الله؟

إنها أرادته مُحرَّرًا من الأشياء.. أرادته محرَّرًا عن الخَلق.. أرادته محرَّرًا عن الدنيا.. أرادته محرَّرًا عن الأكوان.. حتى يكون قلبه خالصًا لله سبحانه وتعالى.

إنها تريد المولود حُرًّا، ذكرًا كان ذلك المولود أو أنثى، لا يهم، لأن الله سبحانه وتعالى خلق البشرية من ذكر وأنثى، وقد قال العلماء: إنها نذرت أن تتخلى عن استئناسها بالولد، لأن الحُرّ بالمنطق والمفهوم الفقهي لا يُنذَر، لكنْ لما كان لا يُعتبر مالاً متقولاً إلاَّ إذا كان عبدًا رقيقًا، فقد نذرت أن تترك استئناسها بولدها، لأن الأم تحمل في قلبها وصدرها عاطفة جيّاشة، وأقصى ما يمكن أن تصل إليه الأم هو أن تستأنس بولدها أو بنتها، لكنها نذرت أن تتخلى عن استئناسها ذاك، حتى يكون ذلك المولود عبدًا وحُرًّا لله سبحانه وتعالى عن سواه.

ثم قال: {فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ولاحظوا تكرير الاسمين: السميع والعليم، عندما يقول سبحانه: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، وبعد ذلك يُعيد ثانية في قوله على لسان امرأة عمران: {فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

ثم قال: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} إن الذي نذرته أن يكون لله، ونذرت أن تتخلى عن استئناسها به، لم يكن ذكرًا، بل كان أنثى.

وهكذا يُظهِر الله سبحانه وتعالى الصورة البشرية في وجهيها، لأن المُعتاد في تلك البيئة أن يكون ذلك المولود الذي يُنذَر لله سبحانه وتعالى، والذي يُترك الاستئناسُ به ليكون عتيقَ الله، وليكون الحُرَّ عن الأشياء، أن يكون ذَكَرًا.

إن القيمة عادةً تنصبّ نحو الذكورية، وتتوجّه نحو الذكَر، مع الإعراض عن النصف الآخر من البشرية الذي هو الأنثى، لكن الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يريد أن يُظهر سِرَّه، ويريد أن يُظهر عجائب خَلْقه، جعل ذلك الحُرّ أنثى، لأن العقول تقبل بسرعة أن يكون الذكر مُتحرّرًا عن الأشياء، أما الحُريّة للمرأة فإنه لم يكن يستحضرها في ذهنه، فجعل الله سبحانه وتعالى الحرية للأنثى في هذه الحادثة عن الأغيار، لأنه يريدنا أن نتنبّه إلى هذه الحرية.

وحين تكون الأنثى حُرّة عن سوى الله سبحانه وتعالى، فإنها تستطيع أن تُنتج أجيالاً، وتستطيع أن تصنع رجالاً، وتستطيع أن تصنع نساءً يقومون بخدمة رسالةٍ ساميةٍ حضارية نهضوية ذاتِ قيمة عالية.

إنها قضية دقيقة، عندما يلفت القرآن الانتباه إليها، وعندما يوجّه أذهاننا إلى هذه القضية، فكم منّا من يتحدّث عن تربية الأولاد وهو يقصد الذكور، لكن هذه الصورة واللوحة التي يُقدِّمها القرآن تُسلّط الضوء على تربية الأنثى، وتُسلّط الضوء على هوية تلك الأنثى، التي سيكون لها في المستقبل شأنٌ كبير.

بل أكاد أَصِل - لا أجزم لكنني أكاد أَصِل - إلى قضية استقرائية، وهي أن القرآن الكريم لم يذكر امرأةً صالحةً كان من نتائجها ولدٌ سيء.

وجِد في القرآن رجلٌ صالح وكان من نتائجه ولد سيء، فنوح عليه الصلاة والسلام رسول من رُسل الله، وكان ابنه كافرًا، لكنني بالاستقراء كنت أبحث عن النساء اللواتي ذكرهن القرآن فلم أجد مَن نَاتجُهُنَّ إلاَّ ولدًا صالحًا، كهاجر أم إسماعيل، وسارة أم إسحاق، وأم موسى التي رعت كليم الله: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [القصص: ٧].

عندما تستعرض ذِكْر الأنثى الصالحة التي سلّط القرآن الضوء على سيرتها، لا تجد من نتائجها إلا صالحًا.

وعندما يقول الله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} فإنه يُنبّهنا إلى هذه القيمة، لأنه هو الذي خلقها أنثى، وهو الذي ألهمها أن تقول: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا}

لماذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوجِّه الشباب: **(فاظفر بذات الدين تربت يداك)**؟

إنه يختصر القضية التي لا يفهمها الشباب اليوم، ويريدون أن يدفعوا نتائج تجارب، فاختر أمًّا لأولادك فيها مضمونٌ يتميّز حينما يحمل دلالات الوحي السماويّ، والتي تتعلّم عن الله، والتي تتتلمذ على القرآن، والتي تتتلمذ على رسالة السماء.

(فاظفر بذات الدين تربت يداك)إنه تعبير يختصر القضية كلها، فإذا أردت سعادةً حقيقية فما عليك إلاَّ أن تختصر التجربة: **(فاظفر بذات الدين)**، وحينما تتنازل عن شروط كثيرة من أجل حاجات نفسانية تطلبها النفس، ستدفع ثمن ذلك في حياتك وفي أولادك غاليًا لا رخيصًا.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}فهو سبحانه يعلم أنها ستضع أنثى، وهو الذي خلقها أنثى، لكن أم مريم (وجدة عيسى وامرأة عمران) تقول: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى} أي في البنية الجسدية، فهل يصلح الذي خَلقتَه يا ربّ مختلفًا في بنيته الجسدية عن الذَّكر، لهذا الذي نذرتُه لك، ليكون مُحرَّرًا عن الأشياء وعن الأغيار؟

ثم قال: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} وقالوا في التفسير: من معانيها أنها خادمة ربها.

{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا} فهي تخطط للمستقبل، وتنظر إلى بعيد.

إنها لا تُخطط من أجل المولود حديث الولادة، لكنها تُخطط للجيل الذي يأتي من بعده، فكان من ذريتها عيسى الذي كان كلمة الله وروحه، الذي خلقه بـــ: "كُن"، والذي سمّاه المسيح.

والمسيح وظيفةٌ خُبِّئَت لرجل سوف يمسح الأرض من الأضداد، ويمسح الأرض من الشرك والكفر، وهو وظيفة خُبِّئت لرجل سوف يُنهي وجود الباطل على وجه الأرض، ليتحقَّق - ولو لمدّة زمنيّة محدودة - المَسْح التام لكل أشكال الباطل، لأنه ينـــزل بالرسالة، وينـــزل بالآيات، وينـــزل بخوارق

العادات في آخر الزمان، ليُعلن تبعيته لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعدها يمسح الأرض من الشرك، ومن الباطل، ومن وجود صراع الأضداد... ليعيش العالم ولو لبرهة زمنية، حالةً من الأمن والأمان، وليعيش الانطواء في رسالة السماء.

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} فالمؤمن ليس هو ذلك الذي ينظر في محل وضع قدمه فقط، إنما يُخطط: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨]

أين التخطيط في أمةٍ لا تبحث إلا عن لقمة عيش، كما يقولون؟

أين التخطيط؟

أعداء الله، الصهاينة، منذ زمن طويل يُخططون، ويحيكون المؤامرات، ويحيكون التدبير الذي يصلون به إلى الاستعلاء والتجبّر والتكبّر، لكننا نُحب التغيير لمجرد التغيير، ولا نثبت على خطة، ولا على رؤية، إنما نقف مع أمزجتنا، فتارة نكون مع الشرق، وتارة نصبح مع الغرب، وتارة نعلنها يمينًا، وتارة نعلنها شمالاً...

أين الرؤية الواضحة المستقرة التي ترسم لنهضة وتُخطط لحضارة.

ثم قال: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} أي قبلها ربُّنا سبحانه مع أنها أنثى، وذلك حتى نفهم الرسالة عندما نعتني بتربية الأولاد، وعندما نوجّه التربية باتجاه الذكور والإناث معًا.

{وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أي أنبتها في طاعة الله لا في الرجس، ولا في الأدناس، إنما في بيئة نظيفة.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} فأمر الله رسوله زكريَّا بالقيام بأمرها، لكنه مع ذلك التكليف الذي يُكلّف به رسوله، ومع الاختصام الذي تحدّث عنه القرآن في نفس السورة، عندما قال للنبي صلى الله عليه وسلم:

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: ٤٤]

إنه سبحانه يصوّر صورة بديعة عن اختصامٍ من أجل رعاية مريم، ويُكلّف بعدها زكريا رسوله برعايتها.

وبعد كل هذا يتكفّل هو سبحانه برعايتها، فيدخل زكريا بعد الاختصام وبعد أن كُلِّف برعايتها، من أجل أن يقوم بكفالتها فيجد الله قد كَفِلها، وقد رعاها، من أجل أن نفهم القيمة.

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}

يا سبحان الله! كل ذلك الاختصام، وكفالة رسول، لكنها بعد ذلك في كفالة الله وفي رعايته.

{قَالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وتنتقل بعد آيات، بعد أن يذكر القرآن قصة زكريا وطلبه للذرية عندما رأى هذا فقال: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} فكان هذا المشهد سببًا لطلب زكريا الذرية.

بعد هذا تنتقل فتجد القرآن يتابع بعد قصة زكريا ويحيى فيقول: {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}.

وهكذا وصلت مريم إلى حالة، بعد أن صارت المُحرَّر من الأغيار، أصبحت فيها تكلمها الملائكة، وصار جبريل الروح يظهر لها لينفخ فيها، وليتكوّن من تلك النفخة رسولٌ من رُسل الله، عيسى عليه الصلاة والسلام: {إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}.

إنها رسالة ينبغي أن نفهم حيثيَّاتها، وينبغي أن نقف عند هذا العنوان: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} حتى نحرص أن يُنتج النوعُ المتميّز النوعَ المتميّز.

فهل سنأخذ من هذه المناسبة درسنا التربويّ، أم أننا سنبقى مع شهواتنا وحظوظنا؟

رُدّنا اللهمَّ إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.